

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة السورة

مدنية في قول الجميع. إلا رواية عن عطاء: أن العشر الأول منها مدنيّ وباقها مكّي، وقال الكلبي: نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] نزلت بمكة.

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ التي اشتكت إلى الله هي خولة بنت ثعلبة. وقيل بنت حكيم. وقيل: اسمها جميلة. وخولة أصح؛ وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تُدعى عميراً، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين؛ فاتق الله يا عمر؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب؛ وهو واقف يسمع كلامها؛ فقليل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟ وقالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ؛ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي ونشرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني؛ اللهم إني أشكر إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ خروجه ابن ماجه في السنن^(١). والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾^(٢). وقال الماوردي: هي خولة بنت ثعلبة. وقيل: بنت خويلد. وليس هذا بمختلف؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدّها فنسبت إلى كل

(١) صحيح: ابن ماجه (٢٠٦٣) في الطلاق، وصححه الألباني.

(٢) البخاري في الفتح معلقاً (٣٧٢/١٣).

واحد منهما، وزوجها أوس بن الصّامت أخو عبادة بن الصّامت.

وقال الثعلبي قال ابن عباس: هي خوّلة بنت خويلد الخزرجية، كانت تحت أوس بن الصّامت أخي عبادة بن الصّامت، وكانت حسنة الجسم؛ فأراها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها (١) فأعجبه أمرها، فلما انصرفت أرادها فأبت فغضب عليها قال عروة: وكان امرأ به لَمَم (٢) فأصابه بعض لَمَمه فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي. وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية، فسألت النبي ﷺ فقال لها: «حرمت عليه» فقالت: والله ما ذكر طلاقاً؛ ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت له بطني؛ فقال: «حرمت عليه» فما زالت تراجعته ويراجعها حتى نزلت عليه الآية (٣). وروى الحسن: أنها قالت: يا رسول الله قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجي ظاهر مني؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما أوحى إليّ في هذا شيء» فقالت: يا رسول الله، أوحى إليك في كل شيء وطوي عنك هذا؟ فقال: «هو ما قلت لك» فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله. فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية (٤).

وروى الدارقطني من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدثه قال: إن أوس بن الصّامت ظاهر من امرأته خوّلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقالت: ظاهر حين كبرت سني وورق عظمي. فأنزل الله تعالى آية الظهار، فقال رسول الله ﷺ لأوس: «أعتق رقبة» قال: مالي بذلك يدان. قال: «فصم شهرين متتابعين» قال: أما إنني إذا أخطأني أن أكل في يوم ثلاث مرات يكلّ بصري. قال: «فأطعم ستين مسكيناً» قال: ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. قال: فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له والله غفور رحيم (٥). ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ قال: فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكيناً، وفي الترمذي وسنن ابن ماجه: أن سلمة بن صخر السبائي ظهر من امرأته، وأن النبي ﷺ قال له: «أعتق رقبة» قال: فضربت صفحة عنتي بيدي. فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فصم شهرين» فقلت: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فأطعم ستين مسكيناً» الحديث (٦). وذكر ابن العربي في أحكامه: روي أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها، فأتت النبي ﷺ فسألته عن ذلك. فقال النبي ﷺ: «قد حرمت عليه» فقالت: أشكو إلى الله حاجتي. (ثم عادت فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه» فقالت: إلى الله أشكو حاجتي إليه) وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن، ثم تحوّلت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي، فذهبت أن تعيد، فقالت عائشة: اسكتي فإنه قد نزل الوحي. فلما نزل القرآن قال رسول الله ﷺ لزوجها: «أعتق رقبة» قال: لا أجد. قال: «صم شهرين متتابعين» قال: إن لم أكل في اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصري. قال: «فأطعم ستين

(١) العجيزة: مؤخرة المرأة خاصة. اللسان «عجز».

(٢) اللمم: المراد به هنا: الجنون أو طرف منه يلم بالإنسان ويعتبر به. اللسان «لمم».

(٣) أنظر: النكت والعيون (٤٨٧/٥) للماوردي.

(٤) صحيح: الدارقطني في سننه (٣١٦/٣) (٢٦٠).

(٦) حسن: الترمذي (١٢٠٠) في الطلاق واللعان، وابن ماجه (٢٠٦٤) في الطلاق، وحسنه الألباني.

مسكيناً». قال: فأعني. فأعانه بشيء^(١). قال أبو جعفر النحاس: أهل التفسير على أنها خولة وزوجها أوس بن الصّامت، واختلفوا في نسبها، قال بعضهم: هي أنصارية وهي بنت ثعلبة، وقال بعضهم: هي بنت دليج، وقيل: هي بنت خويلد، وقال بعضهم: هي بنت الصامت، وقال بعضهم: هي أمة كانت لعبد الله بن أبيّ، وهي التي أنزل الله فيها ﴿وَلَا تَكْرَهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] لأنه كان يكرهها على الزنا. وقيل: هي بنت حكيم. قال النحاس: وهذا ليس بمتناقض، يجوز أن تنسب مرة إلى أبيها، ومرة إلى أمها، ومرة إلى جدّها، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله ابن أبيّ، فقيل لها أنصارية بالولاء؛ لأنه كان في عداد الأنصار وإن كان من المنافقين.

الثانية: قرئ «سَمِعَ اللَّهُ» بالإدغام^(٢) و﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ بالإظهار. والأصل في السماع إدراك المسموعات، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن. وقال ابن فُورك: الصحيح أنه إدراك المسموع. وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع: إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بأذانهم من غير أن يكون له أذن، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه؛ وإن كان غير موصوف بالحس المركب في الأذن؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت. والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بهما. وشكى واشتكى بمعنى واحد. وقرئ «تَحَاوَرَكُ»^(٣) أي تراجعك الكلام و﴿تَجَادَلَكُ﴾ أي تسائلك.

﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَابِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «يَظَاهِرُونَ» بفتح الياء وتشديد الظاء وألف (٤). وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «يَظَاهِرُونَ» بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء (٥). وقرأ أبو العالية وعاصم وزر بن حبيش «يَظَاهِرُونَ» بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء. وقد تقدّم هذا في «الأحزاب». وفي قراءة أبي «يَظَاهِرُونَ» (٦) وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة. وذكر الظاهر كناية عن معنى الركوب، والأدمية إنما يركب بطنها ولكن كني عنه بالظهر؛ لأن ما يركب من غير الأدميات فلإنما يركب ظهره، فكني بالظهر عن الركوب. ويقال: نزل عن امرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب. ومعنى أنت عليّ كظهر أمي: أي أنت عليّ محرمة لا يحلّ لي ركوبك.

(١) أحكام القرآن (١٧٤٨/٤) لابن العربي المالكي.

(٢) قراءة متواترة: انظر: المحرر الوجيز (١٥/ ٤٣٤) لابن عطية.

(٣) قراءة غير متواترة: انظر: الكشاف (٤/ ٧١) للزمخشري.

(٤، ٥) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص ١٧٩).

(٦) قراءة غير متواترة: انظر: المحرر الوجيز (١٥/ ٤٣٧) لابن عطية.

الثانية: حقيقة الظهر تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظهر محلل بظهر محرّم؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي أنه مظاهر. وأكثرهم على أنه إن قال لها: أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر. وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما. واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه؛ فروي عنه نحو قول مالك؛ لأنه شبه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبّد كالأم. وروى عنه أبو ثور: أن الظهر لا يكون إلا بالأم وحدها. وهو مذهب قتادة والشعبي. والأول قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري.

الثالثة: أصل الظهر أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي. وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً. فإن قال: أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر، أو قال: أنت عليّ مثل أمي؛ فإن أراد الظهر فله نيته، وإن أراد الطلاق كان مطلقاً البتة عند مالك، وإن لم تكن له نية في طلاق ولاظهار كان مظاهراً. ولا ينصرف صريح الظهر بالنية إلى الطلاق؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق وكتابته المعروفة له إلى الظهر، وكناية الظهر خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق البتة.

الرابعة: ألفاظ الظهر ضربان: صريح وكناية؛ فالصريح أنت عليّ كظهر أمي، وأنت عندي وأنت مني وأنت معي كظهر أمي. وكذلك أنت عليّ كبطن أمي أو كراسها أو فرجها أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك عليّ كظهر أمي فهو مظاهر؛ مثل قوله: يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليه. وقال الشافعي في أحد قوليّه: لا يكون ظهاراً. وهذا ضعيف منه؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصة حقيقة خلافاً لأبي حنيفة فصح إضافة الظهر إليه. ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف. وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التي لا تحل له بحال كالبنات والأخت والعمّة والحالة كان مظاهراً عند أكثر الفقهاء، وعند الإمام الشافعي رضي الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا. والكناية أن يقول: أنت عليّ كأمي أو مثل أمي فإنه يعتبر فيه النية. فإن أراد الظهر كان ظهاراً، وإن لم يرد الظهر لم يكن مظاهراً عند الشافعي وأبي حنيفة. وقد تقدّم مذهب مالك رضي الله عنه في ذلك؛ والدليل عليه أنه أطلق تشبيه امرأته بأمه فكان ظهاراً. أصله إذا ذكر الظهر وهذا قوي فإن معنى اللفظ فيه موجود واللفظ بمعناه ولم يلزم حكم الظهر للفظه وإنما ألزمه بمعناه وهو التحريم؛ قاله ابن العربي (١).

الخامسة: إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضاء أمه كان مظاهراً؛ خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنه إن شبهها بعضو يحلّ له النظر إليه لم يكن مظاهراً. وهذا لا يصح؛ لأن النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحلّ له، وفيه وقع التشبيه وإياه قصد المظاهر؛ وقد قال الإمام الشافعي في قول: إنه لا يكون ظهاراً إلا في الظهر وحده. وهذا فاسد؛ لأن كل عضو منها محرّم، فكان التشبيه به ظهاراً كالظهر؛ ولأن المظاهر إنما يقصد تشبيه المحلل بالمحرّم فلزم على المعنى.

السادسة: إن شبه امرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهاراً حملاً على الأول، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا؛ فمنهم من قال: يكون ظهاراً. ومنهم من قال: يكون طلاقاً. وقال أبو

حنيفة والشافعي: لا يكون شيئاً. قال ابن العربي: وهذا فاسد؛ لأنه شبه محللاً من المرأة بمحرم فكان مقيداً بحكمه كالظهر، والأسماء بمعانيها عندنا، وعندهم بالفاظها وهذا نقض للأصل منهم (١).

قلت: الخلاف في الظهار بالأجنبية قوي عند مالك. وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن. ومنهم من لا يجعله شيئاً. ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقاً. وهو عند مالك إذا قال: كظهر ابني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه. وقد روى عنه أيضاً: أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء؛ كما قال الكوفي والشافعي. وقال الأوزاعي: لو قال لها: أنت علي كظهر فلان فهو يمين يكفرها. والله أعلم.

السابعة: إذا قال: أنت علي حرام كظهر أمي كان ظهاراً ولم يكن طلاقاً؛ لأن قوله: أنت حرام عليّ يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة، ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيراً لأحد الاحتمالين يقضي به فيه.

الثامنة: الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه. وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمسائه، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يلزم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهي مسألة عسيرة جداً علينا؛ لأن مالكا يقول: إذا قال لأمته أنت علي حرام لا يلزم. فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنيته. ولكن تدخل الأمة في عموم قوله: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ لأنه أراد من محلاتهم. والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبضع دون رفع العقد فصح في الأمة؛ أصله الحلف بالله تعالى (٢).

التاسعة: ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها مالك. ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ وهذه ليست من نسائه. وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة «براءة» عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧٥] الآية.

العاشر: الذمي لا يلزم ظهاره. وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعي: يصح ظهار الذمي؛ ودليلنا قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ يعني من المسلمين. وهذا يقتضي خروج الذمي من الخطاب. فإن قيل: هذا استدلال بدليل الخطاب. قلنا: هو استدلال بالاشتقاق والمعنى، فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ فلا يتعلق بها حكم طلاق ولا ظهار، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة، ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ يقتضي صحة ظهار العبد خلافاً لمن منعه. وحكاة الثعلبي عن مالك، لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام.

الثانية عشرة: وقال مالك رضي الله عنه: ليس على النساء تظاهر، وإنما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ ولم يقل: اللاتي يظهرن منكن من أزواجهن، إنما الظهار على الرجال. قال

(١) أحكام القرآن (١٧٤٩/٤) لابن العربي المالكي.

(٢) أحكام القرآن (١٧٥١/٤) لابن العربي المالكي.

ابن العربي ^(١) : هكذا روي عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد. وهو صحيح معني؛ لأنَّ الحل والعقد (والتحليل والتحرير) في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع. قال أبو عمر: ليس على النساءظهار في قول جمهور العلماء. وقال الحسن بن زياد: هي مظاهرة. وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد: ليسظهار المرأة من الرجل بشيء قبل النكاح كان أو بعده. وقال الشافعي: لاظهار للمرأة من الرجل. وقال الأوزاعي: إذا قالت المرأة لزوجها: أنت عليّ كظهر أمي فلانة فهي يمين تكفُّرها. وكذلك قال إسحاق: قال: لا تكون امرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفُّرها. وقال الزهري: أرى أن تكفر كفارة الظهار، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها؛ رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال: حرمت ما أحل الله، عليها كفارة يمين. وهو قول أبي يوسف. وقال محمد بن الحسن: لا شيء عليها.

الثالثة عشرة: من به لَمَمٌ وانتظمت له في بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره؛ لما روي في الحديث: أن خولة بنت ثعلبة وكان زوجها أوس بن الصّامت وكان به لَمَمٌ فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من امرأته.

الرابعة عشرة: من غضب وظاهر من امرأته أو طلق لم يسقط عنه غَضَبُهُ حُكْمُهُ. وفي بعض طرق هذا الحديث، قال يوسف بن عبد الله بن سلام: حدّثني خولة امرأة أوس بن الصّامت، قالت: كان بيني وبينه شيء، فقال: أنت عليّ كظهر أمي ثم خرج إلى نادي قومه. فقولها: كان بيني وبينه شيء؛ دليل على منازعة أحرجه فظاهر منها. والغضب لغو لا يرفع حكماً ولا يغيّر شرعاً وكذلك السكران. وهي:

الخامسة عشرة: يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عَقَلَ قوله ونظّم كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] على ما تقدم في «النساء» بيانه. والله أعلم.

السادسة عشرة: ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفر، خلافاً للشافعي في أحد قوليه؛ لأن قوله: أنت عليّ كظهر أمي يقتضي تحريم كل استمتاع بلفظه ومعناه، فإن وطئها قبل أن يكفر، وهي:

السابعة عشرة: استغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة. وقال مجاهد وغيره: عليه كفارتان. روى سعيد عن قتادة، ومطرف عن رجاء بن حيوة عن قبيصة بن ذؤيب عن عمرو بن العاص في المظاهر: إذا وطئ قبل أن يكفر عليه كفارتان. ومعمر عن قتادة قال: قال قبيصة بن ذؤيب: عليه كفارتان. وروى جماعة من الأئمة منهم ابن ماجه والنسائي عن ابن عباس: أن رجلاً ظاهر من امرأته فغشيتها قبل أن يكفر فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «ما حملك على ذلك» فقال: يا رسول الله رأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها. فضحك النبي ﷺ وأمره ألا يقربها حتى يكفر ^(٢). وروى ابن ماجه والدارقطني عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر أنه ظاهر في زمان النبي ﷺ، ثم وقع بامرأته قبل أن يكفر، فأتى رسول الله ﷺ

(١) أحكام القرآن (٤/١٧٥١) لابن العربي المالكي.

(٢) حسن: النسائي (٦/١٦٧) في المجتبى في الظهار، وابن ماجه (٢٠٦٥) في الطلاق، وحسنه الألباني.

فذكر ذلك له فأمره أن يكفر تكفيراً واحداً^(١).

الثامنة عشرة: إذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة؛ كقوله: أنتن عليّ كظهر أمي كان مظاهراً من كل واحدة منهن، ولم يجز له وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة. وقال الشافعي: تلزمه أربع كفارات. وليس في الآية دليل على شيء من ذلك؛ لأن لفظ الجمع إنما وقع في عامة المؤمنين والمعول على المعنى. وقد روى الدارقطني عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه في كل واحدة منهن كفارة^(٢). وهذا إجماع.

التاسعة عشرة: فإن قال لأربع نسوة: إن تزوجتكن فأنتن عليّ كظهر أمي فتزوج إحداهن لم يقربها حتى يكفر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن. وقد قيل: لا يطأ البواقي منهن حتى يكفر. والأول هو المذهب.

الموفية عشرين: وإن قال لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي وأنت طالق البتة؛ لزمه الطلاق والظهار معاً، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفر، فإن قال لها: أنت طالق البتة وأنت عليّ كظهر أمي لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق.

الحادية والعشرون: قال بعض العلماء: لا يصح ظهار غير المدخول بها. وقال المزني: لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية، وهذا ليس بشيء؛ لأن أحكام الزوجية في الموضعين ثابتة، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياساً ونظراً. والله أعلم.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أي ما نساؤهم بأمهاتهم. وقراءة العامة ﴿أُمَّهَاتِهِمْ﴾ بخفض التاء على لغة أهل الحجاز؛ كقوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] وقرأ أبو معمر والسلمي وغيرهما ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾ بالرفع على لغة تميم^(٣). قال الفراء: أهل نجد وبنو تميم يقولون «مَا هَذَا بَشَرًا»، و«مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع. «إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ» أي ما أمهاتهم إلا الوالدات. وفي المثل: ولدتك من دمي عقيبك. وقد تقدم القول في اللاتي في «الأحزاب».

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُنَّ مَنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي فظيماً من القول لا يعرف في الشرع. والزور الكذب ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصاً لهم من هذا القول المنكر.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فَمَنْ مَرَّ بِحَدِّ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾

(١) حسن: ابن ماجه (٢٠٦٥) في الطلاق، والدارقطني في سننه (٣١٨/٣).

(٢) سنن الدارقطني (٣١٨/٣).

(٣) قراءة غير متواترة: انظر: المحرر الوجيز (٤٣٧/١٥) لابن عطية.

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ هذا ابتداء والخبر ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه؛ أي فعليهم تحرير رقة. وقيل: أي فكفارتهم عتق رقة. والمجمع عليه عند العلماء في الظاهر قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي. وهو قول المنكر والزور الذي عنى الله بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُنَّ مَنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]. فمن قال هذا القول حرم عليه وطء امرأته. فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار؛ لفوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العود، وهذا حرف مشكل اختلف الناس فيه على أقوال سبعة: الأول: أنه العزم على الوطء، وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه. وروي عن مالك: فإن عزم على وطئها كان عوداً، وإن لم يعزم لم يكن عوداً. الثاني: العزم على الإمساك بعد التظاهر منها؛ قاله مالك. الثالث: العزم عليهما. وهو قول مالك في موطنه؛ قال مالك في قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه. قال مالك: وإن تزوجها بعد ذلك لم يمسه حتى يكفر كفارة التظاهر. القول الرابع: أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عوداً؛ قاله الحسن ومالك أيضاً. الخامس: وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ابتداء من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه. وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة. السادس: أن الظهار يوجب تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة. ومعنى العود عند القائلين بهذا: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد. السابع: هو تكرير الظهار بلفظه. وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس، قالوا: إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العود، وإن لم يكرر فليس بعود. ويسند ذلك إلى بكير بن الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضاً، وهو قول الفراء.

وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي إلى قول ما قالوا. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ هو أن يقول لها أنت عليّ كظهر أمي. فإذا قال لها ذلك فليست تحمل له حتى يكفر كفارة الظهار. قال ابن العربي: فأما القول بأنه العود إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه. وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لعود القول منهم، وأيضاً فإن المعنى ينقضه؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليه الكفارة، وهذا لا يعقل؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره! (١).

قلت: قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حمل منه عليه، وقد قال بقول داود من

(١) أحكام القرآن (٤/١٧٥٣) لابن العربي المالكي.

ذكرناه عنهم، وأما قول الشافعي: بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات: الأول: أنه قال: ﴿ثُمَّ﴾ وهذا بظاهره يقتضي التراخي. الثاني: أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ يقتضي وجود فعل من جهة ومرور الزمان ليس بفعل منه. الثالث: أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء. فإن قيل: فإذا رآها كالأم لم يمكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح. وهذه عمدة أهل ما وراء النهر. قلنا: إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفر وعاد إلى أهله. وتحقيق هذا القول: أن العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولاً اقتضى التحليل وهو النكاح، وقال قولاً اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت عليّ كظهر أمي، وإذا كان ذلك كفر وعاد إلى أهله؛ لقوله: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَا﴾ وهذا تفسير بالغ (في فنه).

الثانية: قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى: والذين يظاهرون من نساءهم ثم يعودون إلى ما كانوا عليه من الجماع ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ لما قالوا؛ أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا: فالجار في قوله: ﴿لِمَا قَالُوا﴾ متعلق بالمحذوف الذي هو خير الابتداء وهو عليهم؛ قاله الأنخفش. وقال الزجاج: المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. وقيل: المعنى الذين كانوا يظهرون من نساءهم في الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه في الجاهلية في الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة. الفراء: اللام بمعنى «عن» والمعنى: ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء. وقال الأنخفش: لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان؛ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال: ﴿فَاهْتَدَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَكِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣] وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود: ٣٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعلية إعتاق رقبة؛ يقال: حررته أي جعلته حراً. ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سليمة من كل عيب، من كمالها إسلامها عند مالك والشافعي؛ كالرقبة في كفارة القتل. وعند أبي حنيفة وأصحابه تجزي الكافرة ومن فيها شائبة رِقْ كالمكاتبه وغيرها.

الرابعة: فإن أعتق نصفي عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبي حنيفة. وقال الشافعي يجزى؛ لأن نصف العبدین في معنى العبد الواحد؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال فجاز أن يدخلها التبعض والتجزي كالإطعام؛ ودليلنا قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقتين مقامها؛ أصله إذا اشترك رجلان في أضحيتين؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشتري رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك في مسألتنا وبهذا يبطل دليلهم. والإطعام وغيره لا يتجزأ في الكفارة عندنا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَا﴾ أي يجامعها فلا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير. وحكي عن مجاهد: أنه إذا وطئ قبل أن

يشرع في التكفير لزمته كفارة أخرى. وعن غيره: أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلاً؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخرها حتى مسّ فقد فات وقتها. والصحيح ثبوت الكفارة؛ لأنه بوطئه ارتكب إثماً فلم يكن ذلك مسقطاً للكفارة، ويأتي بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها. وفي حديث أوس بن الصامت لما أخبر النبي ﷺ بأنه وطئ امرأته أمره بالكفارة. وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام. وقال أبو حنيفة: إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم؛ فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم في قول أكثر العلماء. وقاله الحسن وسفيان، وهو الصحيح من مذهب الشافعي. وقيل: وكل ذلك محرّم وكل معاني المسيس؛ وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي. وقد تقدم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ﴾ أي تؤمرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التكفير وغيره.

السابعة: من لم يجد الرقبة ولا ثمنها، أو كان مالكا لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته، أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقتة، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئاً سواه، فله أن يصوم عند الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك. وقال مالك: إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة، وهي:

الثامنة: فعليه صوم شهرين متتابعين. فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر استأنفهما، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض، فقيل: يبيّن؛ قاله ابن المسيّب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي. وهو أحد قولي الشافعي وهو الصحيح من مذهبه. وقال مالك: إنه إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنى إذا صح. ومذهب أبي حنيفة رضي الله عنه أنه يتدىء. وهو أحد قولي الشافعي.

التاسعة: إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعي؛ لأنه بذلك أمر حين دخل فيه. ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه؛ قياساً على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل انقضائها، فإنها تستأنف الحيض إجماعاً من العلماء. وإذا ابتدأ سفرأ في صيامه فأفطر، ابتدأ الصيام عند مالك والشافعي وأبي حنيفة؛ لقوله: ﴿مُتَّابِعِينَ﴾. ويبيّن في قول الحسن البصري؛ لأنه عُدّ وقياساً على رمضان، فإن تخللها زمان لا يحلّ صومه في الكفارة كالعيدين وشهر رمضان انقطع.

العاشرة: إذا وطئ المتظاهر في خلال الشهرين نهاراً، بطل التسابع في قول الشافعي، وليلاً فلا يبطل؛ لأنه ليس محلاً للصوم. وقال مالك وأبو حنيفة: يبطل بكل حال ووجب عليه ابتداء الكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين، وإلى أبعاضهما، فإذا وطئ قبل انقضائهما فليس هو الصيام المأمور به، فلزمه استئنافه؛ كما لو قال: صلّ قبل أن تكلم زيداً. فكلم زيداً في الصلاة، أو قال: صلّ قبل أن تبصر زيداً فأبصره في الصلاة لزمه استئنافها؛ لأن هذه الصلاة ليست هي الصلاة المأمور بها كذلك هذا؛ والله أعلم.

الحادية عشرة: ومن تناول مرضه طويلاً لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبير، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام. ولو كان مرضه مما يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطء امرأته كان

الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام. ولو كَفَّرَ بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه.

الثانية عشرة: ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم. ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يُكْفَرَ صام. وإنما يُنظر إلى حاله يوم يكْفَر. ولو جامعها في عدمه وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق. ولو ابتداء بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى. وإن كان اليوم واليومان ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه. ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم في الصلاة أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك.

الثالثة عشرة: ولو أعتق رقبتين عن كفارتي ظهار أو قتل أو فطر في رمضان وأشرك بينهما في كل واحدة منهما لم يجزه. وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين. وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين. وقد قيل: إن ذلك يجزيه. ولو ظاهر من امرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدة منهما حتى يكفّر كفارة أخرى. ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفّر الكفارة عن الأخرى. ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهنّ ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوماً، فإن كَفَّرَ عنهنّ بالإطعام جاز أن يطعم عنهنّ مائتي مسكين، وإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق.

فصل وفيه ست مسائل:

الأولى: ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبة؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مدّان بمدّ النبي ﷺ. وإن أطعم مدّاً بمدّ هشام، وهو مدّان إلا ثلثاً، أو أطعم مدّاً ونصفاً بمدّ النبي ﷺ أجزأه. قال أبو عمر بن عبد البر: وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبي ﷺ؛ لأن الله عز وجل لم يقل في كفارة الظهار ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ﴾ [المائدة: ٨٩] فوجب قصد الشيع. قال ابن العربي (١): وقال مالك في رواية ابن القاسم وابن عبد الحكم: مدّ بمدّ هشام وهو الشيع هاهنا؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط. وقال في رواية أشهب: مدّان بمدّ النبي ﷺ. قيل له: ألم تكن قلت مدّ هشام؟ قال: بلى، مدّان بمدّ النبي ﷺ أحب إليّ. وكذلك قال عنه ابن القاسم أيضاً.

قلت: وهي رواية ابن وهب ومطرف عن مالك: أنه يعطي مدين لكل مسكين بمدّ النبي ﷺ. وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. ومذهب الشافعي وغيره مدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المدّ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين. ودليلنا قوله تعالى: ﴿فِإِطْعَامِ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ وإطلاق الإطعام يتناول الشيع، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا

بزيادة عليه . وكذلك قال أشهب : قلت لمالك أيختلف الشَّيع عندنا وعندكم؟ قال نعم الشَّيع عندنا مُدَّ بمدَّ النبي ﷺ والشَّيع عندكم أكثر؛ لأن النبي ﷺ دعا لنا بالبركة دونكم، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن . وقال أبو الحسن القاسبي : إنما أخذ أهل المدينة بمدَّ هشام في كفارة الظهر تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكراً من القول وزوراً . قال ابن العربي (١) : وقع الكلام هاهنا في مدَّ هشام كما ترون، ووددت أن يهشم الزمان ذكره، ويمحو من الكتب رسمه؛ فإن المدينة التي نزل الوحي بها واستقرَّ الرسول بها ووقع عندهم الظهر، وقيل لهم فيه : ﴿فَأَطْعَمُ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾ فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشَّيع، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم، وقد ورد ذلك الشَّيع في الأخبار كثيراً، واستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان في أذن هشام، فرأى أن مدَّ النبي ﷺ لا يشبعه، ولا مثله من حواشيه ونظرائه، فسؤل له أن يتخذ مدّاً يكون فيه شبعه، فجعله رطلين وحمل الناس عليه، فإذا ابتلَّ عاد نحو الثلاثة الأرتال؛ فغيَّر السُّنة وأذهب محل البركة . قال النبي ﷺ حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة في مدَّهم وصاعهم، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة، فكانت البركة تجري بدعوة النبي ﷺ في مدَّه، فسمى الشيطان في تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة، فلم يستجب له في ذلك إلا هشام، فكان من حق العلماء أن يلغوا ذكره ويمحو رسمه إذا لم يغيروا أمره، وأما أن يحيلوا على ذكره في الأحكام، ويجعلوه تفسيراً لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسراً عند الصحابة الذين نزل عليهم فَخَطَبُ جَسِيمٍ، ولذلك كانت رواية أشهب في ذكر مدين بمدَّ النبي ﷺ في كفارة الظهر أحبَّ إلينا من الرواية بأنها بمدَّ هشام . ألا ترى كيف نبه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب : الشَّيع عندنا بمدَّ النبي ﷺ، والشَّيع عندكم أكثر لأن النبي ﷺ دعا لنا بالبركة . وبهذا أقول، فإن العبادة إذا أُديت بالسنة، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل في الميزان، وأبرك في يد الآخذ، وأطيب في شذقه، وأقل آفة في بطنه، وأكثر إقامة لصلبه . والله أعلم .

الثانية: ولا يجزىء عند مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكيناً . وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزاءه .

الثالثة: قال القاضي أبو بكر بن العربي (٢) : من غريب الأمر: أن أبا حنيفة قال إن الحجرَ على الحر باطل . واحتج بقوله تعالى : ﴿فَتَنْحَرِبُوا رِقَبَةً﴾ ولم يفرق بين الرشد والسفيه؛ وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره، فإن هذه الآية عامة، وقد كان القضاء بالحجر في أصحاب رسول الله ﷺ فاشياً والنظر يقتضيه، ومن كان عليه حجر لصغيرٍ أو لولايةٍ وبلغ سفيهاً قد نهى عن دفع المال إليه، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضي على العام .

الرابعة: وحكم الظهر عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهر طلاقاً؛ وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قلابة وغيرهما .

الخامسة: قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة

﴿لَتُؤْمِنُوا﴾ أي لتصدقوا أن الله أمر به. وقد استدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى؛ لما ذكرها وأوجبها قال: ﴿ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى وواقفين عند حدوده لا تتعدوها؛ فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيماناً، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان. فإن قيل: معنى قوله: ﴿ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لثلاث تعودوا للظهار الذي هو منكر من القول وزور. قيل له: قد يجوز أن يكون هذا مقصوداً والأول مقصوداً، فيكون المعنى ذلك لثلاث تعودوا للقول المنكر والزور، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرّمهما، ولتجنبوا المظاهر منها إلى أن تكفروا؛ إذ كان الله منع من ميسسها، وتكفروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفارة وألزم إخراجها منكم؛ فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله؛ لأنها حدود تحفظونها، وطاعات تؤدونها والطاعة لله ورسوله ﷺ إيمان. وبالله التوفيق.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي بين معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة. ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لمن لم يصدق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ
وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٣﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها. والمحادة المعادة والمخالفة في الحدود؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣] وقيل: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾ أي أولياء الله كما في الخبر: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة» (١). وقال الزجاج: المحادة أن تكون في حد يخالف حد صاحبك. وأصلها المناعة؛ ومنه الحديد، ومنه الحداد للبواب. ﴿كَبُتُوا﴾ قال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا. وقال قتادة: اخزوا كما أخزى الذين من قبلهم. وقال ابن زيد: عذبوا. وقال السدي: لعنوا. وقال الفراء (٢): غيظوا يوم الخندق. وقيل: يوم بدر. والمراد المشركون. وقيل: المنافقون. ﴿كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وقيل: ﴿كَبُتُوا﴾ أي سيكتون، وهو بشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر، وأخرج الكلام بلفظ الماضي تقريباً للمخبر عنه. وقيل: هي بلغة مدحج. ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فيمن حدّ الله ورسوله من الذين قبلهم فيما فعلنا بهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم في حالة واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ أي يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ عليهم في صحائف أعمالهم ﴿وَنَسُوهُ﴾ هم حتى ذكرهم به في صحائفهم

(١) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (١/ ٢٣٠) لابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، ولأبي نعيم في الاسماء.

(٢) معاني القرآن (٣/ ١٣٩).

ليكون أبلغ في الحجة عليهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع وناظر لا يخفى عليه شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه سر ولا علانية. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ﴾ قراءة العامة بالياء؛ لاجل الحائل بينهما. وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع والأعرج وأبو حيوة وعيسى «مَا تَكُونُ» بالياء لتأنيث الفعل (١). والنجوى: السرار؛ وهو مصدر والمصدر قد يوصف به؛ يقال: قوم نجوى أي ذوو نجوى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ خفض بإضافة «نَجْوَىٰ» إليها. قال الفراء (٢): «ثَلَاثَةٌ» نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت «نَجْوَىٰ» إليها. ولو نصبت على إضمار فعل جاز؛ وهي قراءة ابن أبي عبله «ثَلَاثَةٌ» و«خَمْسَةٌ» بالنصب على الحال بإضمار يتناجون (٣)؛ لأن نجوى يدل عليه؛ قاله الزمخشري (٤). ويجوز رفع «ثَلَاثَةٌ» على البدل من موضع «نَجْوَىٰ». ثم قيل: كل سرار نجوى. وقيل: النجوى ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئاً ويتناجون به. والسرار ما كان بين اثنين. ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلم ويسمع نجواهم؛ يدل عليه افتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم. وقيل: النجوى من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به، والمعنى: أَنْ سَمِعَ اللَّهُ محيط بكل كلام، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها. ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ قرأ سلام ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع (٥) على موضع «مِنْ نَجْوَىٰ» قبل دخول «مِنْ» لأن تقديره ما يكون نجوى، و«ثَلَاثَةٌ» يجوز أن يكون مرفوعاً على محل «لَا» مع «أَدْنَىٰ» كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة. ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء؛ كقولك لا حول ولا قوة إلا بالله. وقد مضى في «البقرة» بيان هذا مستوفى (٦).

وقرأ الزهري وعكرمة «أكبر» بالياء (٧). والعامة بالياء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر. وقال الفراء في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ قال: المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قل أو أكثر، يعلم ما يقولون سرّاً وجهراً ولا تخفى عليه خافية؛ فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض.

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٩).

(٢) معاني القرآن (٣/ ١٤٠).

(٣) قراءة غير متواترة: انظر: البحر المحيط (٨/ ٢٣٥) لأبي حيان.

(٤) الكشاف (٤/ ٧٤).

(٥) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٩).

(٦) عند الآية (٢٥٤).

(٧) قراءة غير متواترة: المحرر الوجيز (١٥/ ٤٤٤) لابن عطية.

وقيل: معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا انتقال. ونزل ذلك في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سراً فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: نزلت في اليهود. ﴿ثُمَّ يَنْبُئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من حسنٍ وسيئٍ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ قيل: إن هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدمناه. وقيل: في المسلمين. قال ابن عباس: نزلت في اليهود. والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فيقول المؤمنون: لعلمهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، ويسوؤهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبي ﷺ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت (١). وقال مقاتل: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة (٢)، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شراً، فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسول الله ﷺ فلم ينتهوا فنزلت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يأتي النبي ﷺ فيسأله الحاجة ويتناجيه والأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهم فيفزعون لذلك فنزلت.

الثانية: روى أبو سعيد الخدري قال: كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى» فقلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله؛ إنا كنا في ذكر المسيح يعني الدجال فرقاً منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه» قلنا: بلى يا رسول الله؛ قال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل» ذكره الماوردي (٣). وقرأ حمزة وخلف ورؤيس عن يعقوب «ويَتَنَجَّجُونَ» في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه (٤). وقرأ الباقون «ويَتَنَجَّجُونَ» في وزن يتفاعلون، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ [المجادلة: ٩] و﴿تَتَنَاجَوْا﴾ النحاس: وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا فعلى هذا «يَتَنَجَّجُونَ» و«يَتَنَجَّجُونَ» واحد. ومعنى ﴿بِالْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي الكذب والظلم. ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي مخالفته. وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد «وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ» (٥) بالجمع.

(١) أسباب النزول للواحدى (ص ٣٠٦).

(٢) المودعة: الهدنة. اللسان «ودع».

(٣) النكت والعيون (٥/٤٩١) للماوردي.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٩).

(٥) قراءة غير متواترة: المحرر الوجيز (١٥/٤٤٦) لابن عطية.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ لا خلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود؛ كانوا يأتون النبي ﷺ فيقولون: السام عليك. يريدون بذلك السلام ظاهراً وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبي ﷺ: «عليكم» في رواية، وفي رواية أخرى «و عليكم»^(١). قال ابن العربي: وهي مشكلة. وكانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهنا الله بسببه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حلیم لا يعاجل من سبه، فكيف من سب نبيه؟! وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «لا أحد أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيههم ويرزقهم»^(٢) فأنزل الله تعالى هذا كشفاً لسرايرهم، وفضحاً لبواطنهم، معجزةً لرسوله ﷺ. وقد ثبت عن قتادة عن أنس: أن يهودياً أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال: السام عليكم. فرد عليه النبي ﷺ وقال: «أندرون ما قال هذا» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال كذا ردوه علي» فردوه؛ قال: «قلت السام عليكم» قال: نعم. فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليكم ما قلت» فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾^(٣).

قلت: خرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح. وثبت عن عائشة أنها قالت: جاء أناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم وفعل. فقال عليه السلام: «مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» فقلت: يا رسول الله أأنت ترى ما يقولون؟ فقال: «أأنت ترى ما يقولون أورد عليهم ما يقولون أقول وعليكم» فنزلت هذه الآية ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي إن الله سلم عليك وهم يقولون السام عليك، والسام الموت^(٤). خرجه البخاري ومسلم بمعناه. وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» كذا الرواية «و عليكم»^(٥) بالواو وتكلم عليها العلماء؛ لأن الواو العاطفة يقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به لنا من الموت، أو من سامة ديننا وهو الملل. يقال: سَمِمَ يسأم سامةً وساماً. فقال بعضهم: الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَأَتَّحَى

أي لما أجزنا اتتحى فزاد الواو. وقال بعضهم: هي للاستئناف، كأنه قال: والسام عليكم. وقال بعضهم: هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك؛ لأننا نجاب عليهم ولا يجابون علينا؛ كما قال النبي ﷺ: روي أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سلم ناس من يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال: «و عليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «بلى قد سمعت فرددت عليهم وأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا» خرجه مسلم^(٦).

(١) صحيح: مسلم (٢١٦٤ / ٨ ، ٩) ، وأحمد ٩ / ٢ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) متفق عليه: البخاري في التوحيد، باب (٣) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل .

(٣) صحيح: البخاري (٦٢٥٨) في الاستئذان، والترمذي (٢٣٠١) في تفسير القرآن .

(٤) متفق عليه: البخاري (٦٢٥٦) في الاستئذان، ومسلم (١٠ / ٢١٦٥) في الاستئذان .

(٥) متفق عليه: البخاري (٦٢٥٨) في الاستئذان، ومسلم (١١ / ٢١٨٤) في السلام .

(٦) صحيح: مسلم (١٧٠٧ / ٤) في السلام .

ورواية الواو أحسن معنى، وإثباتها أصح رواية وأشهر.

وقد اختلف في رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين، وإليه ذهب ابن عباس والشَّعبي وقتادة؛ للأمر بذلك. وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وابن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك. وقد اختار ابن طاوس أن يقول في الرد عليهم: علاك السلام أي ارتفع عنك. واختار بعض أصحابنا: السَّلام بكسر السين يعني الحجارة. وما قاله مالك أولى اتباعاً للسنَّة؛ والله أعلم. وروى مسروق عن عائشة قالت: أتى النبي ﷺ ناس من اليهود، فقالوا: السَّام عليك يا أبا القاسم؛ قال: «وعليكم» قالت عائشة: قلت بل عليكم السَّامُ والذَّامُ. فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لا تكوني فاحشة» فقالت: ما سمعت ما قالوا فقال: «أو ليس قد رددتُ عليهم الذي قالوا قلتُ وعليكم» (١). وفي رواية قال: ففطنت بهم عائشة فسبتهن، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش» وزاد فانزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حِيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحِبَّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية (٢). الذام بتخفيف الميم هو العيب؛ وفي المثل (لا تُعَدِّمُ الحسنةَ ذاماً) أي عيباً، ويهمز ولا يهمز؛ يقال: ذَامَهُ يَذَامُهُ، مثل ذاب يذاب، والمفعول مذؤوم مهموزاً، ومنه ﴿مَذُؤُومًا مَذُؤُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] ويقال: ذَامَهُ يَذُومُهُ مخففاً كرامه يرومه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ قالوا: لو كان محمد نبياً لعذبنا الله بما نقول فهلاً يعذبنا الله. وقيل: قالوا إنه يرد علينا ويقول عليكم السام والسام الموت، فلو كان نبياً لاستجيب له فينا ومتنا. وهذا موضع تعجب منهم؛ فإنهم كانوا أهل كتاب، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يُغضبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب. ﴿حَسِبُهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي كافيهم جهنم عقاباً غداً ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَيْمَنِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ﴾ نهى المؤمنين أي يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ﴾ أي تساررتهم. ﴿فَلَا تَنَجَّوْا﴾ هذه قراءة العامة. وقرأ يحيى ابن وثاب وعاصم ورويس عن يعقوب «فَلَا تَنَجَّوْا» من الانتجاع ﴿بِالْأَيْمَنِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ﴾ أي بالطاعة ﴿وَالْتَّقْوَى﴾ بالمعصاة عما نهى الله عنه. وقيل: الخطاب للمنافقين؛ أي يا أيها الذين آمنوا بزعمهم. وقيل: أي يا أيها الذين آمنوا بموسى. ﴿وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجتمعون في الآخرة.

﴿إِنَّمَا التَّجَوُّى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَبِضَآرِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّجْوِيءُ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي من تزيين الشياطين ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا في السرايا، أو إذا أجروا اجتماعهم على مكابدة المسلمين، وربما كانوا يناجون النبي ﷺ فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبي ﷺ ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ أي التناجي ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بمشيئته وقيل: بعلمه. وعن ابن عباس: بأمره. ﴿وَعَلَى اللَّهِ لَتَلَوَّكِلَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي يكولون أمرهم إليه، ويفوضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر؛ فهو الذي سلط الشيطان بالوساوس ابتلاءً للعبد وامتحاناً ولو شاء لصرفه عنه.

الثانية: في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الواحد»^(١). وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه»^(٢) فبين في هذا الحديث غاية المنع وهي أن يجد الثالث من يتحدث معه كما فعل ابن عمر؛ وذلك أنه كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجيه حتى دعا رابعاً، فقال له وللأول: تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة. خرجه الموطأ. وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله: «من أجل أن يحزنه» أي يقع في نفسه ما يحزن لأجله. وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلاً ليشرکه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقبات الشيطان وأحاديث النفس. وحصل ذلك كله من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمن ذلك؛ وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلاً؛ لوجود ذلك المعنى في حقه؛ بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به. وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان في أول الإسلام؛ لأن ذلك كان في حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام سقط ذلك. وقال بعضهم: ذلك خاص بالسفر في المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبها، فأما في الحضر وبين العمارة فلا؛ فإنه يجد من يعينه بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث. والله أعلم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ لما بين أن اليهود يحيونه بما لم يحيه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس، وأمر المسلمين بالعاطف والتألف حتى يفسح بعضهم لبعض، حتى يتمكنوا

(١) متفق عليه: البخاري (٦٢٦٩) في الاستئذان، ومسلم (٢١٧٧) في السلام.

(٢) متفق عليه: البخاري (٦٢٩٠) في الاستئذان، ومسلم (٢١٨٤) في السلام.

من الاستماع من رسول الله ﷺ والنظر إليه . قال قتادة ومجاهد : كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ ، فأمرُوا أن يفسح بعضهم لبعض . وقاله الضحاك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب . قال الحسن وزيد بن أبي حبيب : كان النبي ﷺ إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض ؛ رغبة في القتال والشهادة فنزلت . فيكون كقوله : ﴿مَقَاعِدُ الْقِتَالِ﴾ [آل عمران : ١٢١] وقال مقاتل : كان النبي ﷺ في الصففة ، وكان في المكان ضيق يوم الجمعة ، وكان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ؛ فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت ابن قيس بن شماس وقد سبقوا في المجلس ، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على النبي ﷺ ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر : «قم يا فلان وأنت يا فلان» بعدد القائم من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم ، وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم ، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا : ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان ؛ فانزل الله عز وجل هذه الآية (١) . ﴿تَفَسَّحُوا﴾ أي توسعوا . وفتح فلان لأخيه في مجلسه يَفْسَحُ فَسْحًا أي وسع له ؛ ومنه قولهم : بلد فسح ولك في كذا فسحة ، وفسح يفسح مثل منع يَمْنَعُ ، أي وسع في المجلس ؛ وفسح يفسح فسحة مثل كرم يكرم كرامة أي صار واسعاً ؛ ومنه مكان فسح .

الثانية : قرأ السلمي وزر بن حبيش وعاصم ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ . وقرأ قتادة وداود بن أبي هند والحسن باختلاف عنه «إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا» (٢) الباقون ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ فمن جمع فلان قوله : ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ نبيء أن لكل واحد مجلساً . وكذلك إن أريد به الحرب . وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبي ﷺ وجمع لأن لكل جالس مجلساً . وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبي ﷺ ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس ؛ كقولهم : كثر الدينار والدرهم .

قلت : الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة ؛ فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه (قال ﷺ) : «من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به» (٣) ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه» (٤) . وعنه عن النبي ﷺ أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا . وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه . لفظ البخاري (٥) .

الثالثة : إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه ؛ لما روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال : «لا يقيم أحدكم أخاه يوم الجمعة

(١) أسباب النزول (ص ٣٠٨) للواحدي ، ولباب النقول (ص ٤٢٧) للسيوطي .

(٢) قراءة غير متواترة : انظر : الكشاف (٤ / ٧٥) للزمخشري .

(٣) صحيح : بلفظ : «من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له» أخرجه أبو داود ، (٣٠٧١) في الخراج والإمارة والفاء ، ورمز السيوطي له في الجامع الصغير (٨٧٣٩) بالصحة .

(٤) (٥) متفق عليه : البخاري (٦٢٧٠) في الاستئذان ، ومسلم (٢١٧٧ / ٢٧ ، ٢٨) في السلام .

ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا^(١).

فرع: القاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نُظِرَ؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأول في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك؛ لأن فيه تفويت حظه.

الرابعة: إذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الأمر يقوم من الموضع؛ لما روي: أن ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه.

فرع: وعلى هذا من أرسل بساطاً أو سجادةً فتبسط له في موضع من المسجد.

الخامسة: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»^(٢) قال علماؤنا: هذا يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى. وقد قيل: إن ذلك على الندب؛ لأنه موضع غير متمكك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده. وهذا فيه نظر؛ وهو أن يقال: سلمنا أنه غير متمكك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه، فصار كأنه يملك منفعته؛ إذ قد منع غيره من يزاحمه عليه. والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿يَفْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي في قبوركم. وقيل: في قلوبكم. وقيل: يوسع عليكم في الدنيا والآخرة. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما. وكسر الباقون^(٣)، وهما لغتان مثل ﴿يَعْكُفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] و﴿يَعْرُشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين. وقال مجاهد والضحاك: إذا نودي للصلاة فقوموا إليها. وذلك أن رجلاً تشاقلوا عن الصلاة فنزلت. وقال الحسن ومجاهد أيضاً: أي انهضوا إلى الحرب. وقال ابن زيد: هذا في بيت النبي ﷺ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي ﷺ فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ عن النبي ﷺ ﴿فانشُرُوا﴾ فإنه له حوائج فلا تمكثوا. وقال قتادة: المعنى أجيئوا إذا دعيتم إلى أمر معروف. وهذا هو الصحيح؛ لأنه يعم. والنشر الارتفاع، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها؛ يقال نشز ينشز وينشز إذا انتحى من موضعه؛ أي ارتفع منه. وامرأة ناشز منتحية عن زوجها. وأصل هذا من النَّشْر، والنَّشْر هو ما ارتفع من الأرض وتنحى؛ ذكره النحاس.

السابعة: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم. وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية. والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ونم يؤتوا العلم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به. وقيل: كان أهل الغنى

(١) صحيح: مسلم (٢١٧٧/ ٢٩) في السلام.

(٢) صحيح: مسلم (٢١٧٩) في السلام.

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٩)، والإقناع (٢/ ٧٨٢).

يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستيقون إلى مجلس النبي ﷺ فالخطاب لهم. ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً من الأغنياء يقبض ثوبه نفوراً من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: «يا فلان خشيت أن يتعدى غناك إليّ أو فقره إليك» (١) وبين في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس. وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرؤوا القرآن. وقال يحيى بن يحيى عن مالك: «يُرفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الصحابة «وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» يرفع الله بها العالم والطالب للحق.

قلت: والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية؛ فيرفع المؤمن بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانياً. وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» [النصر: ١] فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجلُّ رسول الله ﷺ أعلمه الله إياه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم (٢). وفي البخاري عن عبد الله بن عباس قال: قدم عُسَيْبَةُ بن حصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ابن أخيه الحرِّ ابن قيس بن حصن، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القرءاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهُولاً كانوا أو شباناً. الحديث وقد مضى في آخر «الأعراف» (٣). وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعُسْفَانَ وكان عمر يستعمله على مكة فقال: من استعملته على أهل الوادي؟ فقال: ابن أزي. فقال: ومن ابن أزي؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى قال: إنه قارىء لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» وقد مضى أول الكتاب (٤). ومضى القول في فضل العلم والعلماء في غير موضع من هذا الكتاب والحمد لله. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «بين العالم والعباد مائة درجة بين كل درجتين حَضْرُ الجِوَادِ المُضْمَرِ سبعين سنة» (٥). وعنه ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (٦). وعنه عليه الصلاة والسلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» (٧) فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس: خير سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختر العلم فأعطي المال والملك معاً.

(١) لم أقف عليه .

(٢) صحيح : البخاري في التفسير - تفسير سورة النصر .

(٣) صحيح : وقد سبق .

(٤) سبق في الجزء الأول .

(٥) ضعيف : بلفظ : « بين العالم والعباد سبعون درجة » ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣١٧٨) ورمز له بالضعف .

(٦) ضعيف : أبو داود (٣٦٤١) في العلم، وابن ماجه (٢٢٣) في المقدمة، وضعفه الألباني .

(٧) ذكره المتقي الهندي في كثر العمال (١٤ / ٤٠١) (٣٩٠٧٢) عن عثمان رضي الله عنه .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ﴾ «ناجيتهم» ساررتهم. قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس. ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها. وقال الحسن: نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبي ﷺ ويناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم يتقصونهم في النجوى، فشق عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلافه. وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي ﷺ ويقولون: إنه أذن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحدا مناجاته. فكان ذلك يشق على المسلمين، لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا اجتمعت لقتاله. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ فَلَا تَتَّجِرُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرُّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩] الآية، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النجوى، لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا من النجوى، لضعف مقدره كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية.

الثانية: قال ابن العربي^(١): وفي هذا الخبر عن زيد ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح، فإن الله تعالى قال ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ﴾ ثم نسخه مع كونه خيرا وأطهرا. وهذا رد على المعتزلة عظيم في التزام المصالح، لكن راوي الحديث عن زيد ابنه عبدالرحمن وقد ضعفه العلماء. والأمر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ﴾ نص متواتر في الرد على المعتزلة. والله أعلم.

الثالثة: روى الترمذي عن علي بن علقمة الأنماري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ سألته قال لي النبي ﷺ: «ما ترى ديناراً؟» قلت لا يطيقونه. قال: «نصف دينار» قلت: لا يطيقونه. قال: «فكم» قلت: شعيرة. قال: «إنك لزهيد» قال فنزلت: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ [المجادلة: ١٣] الآية. قال: فبني خفف الله عن هذه الأمة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه^(٢)، ومعنى قوله: شعيرة يعني وزن شعيرة من ذهب. قال ابن العربي: وهذا يدل على مسألتين حستين أصوليتين: الأولى: نسخ العبادة قبل فعلها. والثانية: النظر في المقدرات بالقياس؛ خلافاً لأبي حنيفة^(٣).

قلت: الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة. وقد روي عن مجاهد: أن أول من تصدق

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٧٦٢) لابن العربي المالكي.

(٢) حسن غريب: الترمذي (٣٣٠٠) في تفسير القرآن.

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٧٦١) لابن العربي المالكي.

في ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه وناجى النبي ﷺ . روي أنه تصدق بخاتم. وذكر القشيري وغيره عن علي بن أبي طالب أنه قال: «في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، وهي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ كان لي دينار فبعته، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نفذ؛ فسخت بالآية الأخرى ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ [المجادلة: ١٣] وكذلك قال ابن عباس: نسخها الله بالآية التي بعدها. وقال ابن عمر: لقد كانت لعلي رضي الله عنه ثلاثة لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم؛ تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي من إمساكها ﴿وَأَطَّهَرُ﴾ لقلوبكم من المعاصي ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ يعني الفقراء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ استفهام معناه التقرير. قال ابن عباس: ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ أي أبخلتم بالصدقة؛ وقيل: خفتم، والإشفاق الخوف من المكروه. أي خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال ابن عباس: ما بقي إلا ساعة من النهار حتى نسخ. وكذا قال قتادة. والله أعلم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي نسخ الله ذلك الحكم. وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة. وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن علي رضي الله عنه ضعيف؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشيء. والله أعلم. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في سنته ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ أَتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال قتادة: هم المنافقون تَوَلَّوْا اليهود ﴿مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يقول: ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذنبون بين ذلك، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم. قال السدي ومقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نَبْتَلِ المنافقين؛ كان أحدهما يجالس النبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما النبي ﷺ في حجرة

من حجراته إذ قال: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار وينظر بعيني شيطان» فدخل عبد الله ابن نبتل وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية فقال عليه الصلاة والسلام: «علام تشتمني أنت وأصحابك» فحلف بالله ما فعل ذلك. فقال له النبي ﷺ: «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه؛ فنزلت هذه الآية (١). وقال معناه ابن عباس. روى عكرمة عنه؛ قال: كان النبي ﷺ جالساً في ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال: «يجيؤكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان» فحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق، فدعا به النبي ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك» قال: دعني أجزيك بهم. فمرّ فجاء بهم فحلفوا جميعاً أنه ما كان من ذلك شيء؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَعْثُورُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [المجادلة: ١٨] إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ واليهود المذكورون في القرآن بـ ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦] ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء المنافقين ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في جهنم وهو الدرك الأسفل. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بنس الأعمال أعمالهم ﴿اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ يستجنون بها من القتل. وقرأ الحسن وأبو العالية «إِيْمَانَهُمْ» بكسر الهمزة (٢) هنا وفي «الْمُنَافِقُونَ» (٣) أي إقرارهم باتخاذوه جنة، فأمنت ألسنتهم من خوف القتل، وكفرت قلوبهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار. والصد المنع ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن الإسلام. وقيل: في قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق. وقيل: أي بإلقاء الأراجيف وتثييط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم.

﴿لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من عذابه شيئاً. وقال مقاتل: قال المنافقون إن محمداً يزعم أنه يُنصَر يوم القيامة، لقد شقينا إذا فوالله لتنصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ اليوم. وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غداً، وقد صارت المعارف ضرورية. وقال ابن عباس: هو قولهم ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢] ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بإنكارهم وحلفهم. قال ابن زيد: ظنوا أنهم ينفعهم في الآخرة. وقيل: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لأنهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار. والأول أظهر. وعن ابن عباس قال النبي ﷺ: «ينادي مناد يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القدرية مسودة وجوههم مزرقة أعينهم مائل شديهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا وثناً، ولا

(١) أسباب النزول (ص ٣٠٩) للواحدي.

(٢) قراءة غير متواترة: المحرر الوجيز (١٥/ ٤٥٥) لابن عطية.

(٣) الآية (٧).

اتخذنا من دونك إلهاً» (١). قال ابن عباس: صدقوا والله أناهم الشرك من حيث لا يعلمون؛ ثم تلا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هم والله القدرية. ثلاثاً.

قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي غلب واستعلى؛ أي بوسوسته في الدنيا. وقيل: قوي عليهم. وقال المفضل: أحاط بهم. ويحتمل رابعاً أي جمعهم وضمهم. يقال: أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوي عليهم وأحاط بهم. ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي أوامره في العمل بطاعته. وقيل: زواجه في النهي عن معصيته. والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هنا. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ طائفته ورهطه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في بيعهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ تقدم أول السورة. ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أي من جملة الأذلاء لا أذل منهم ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي قضى الله ذلك. وقيل: كتب في اللوح المحفوظ؛ عن قتادة. الفراء: كتب بمعنى قال. ﴿أَنَا﴾ توكيد ﴿وَرُسُلِي﴾ من بعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب، ومن بعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة. قال مقاتل قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم؛ فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أنتظون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عدداً، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك؛ فنزلت: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ نظيره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٧) ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣].

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ﴾ أي يحبون ويوالون ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ تقدم ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ قال السدي: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبي، جلس إلى النبي ﷺ فشرب النبي ﷺ ماء؛ فقال له: بالله يا رسول الله ما أبقيت من شرابك فضلاً أسقيها أبي؛ لعل الله يطهر بها قلبه؟ فأفضل له فاتاه بها؛ فقال له عبد الله: ما هذا؟ فقال: هي فضلة من شراب النبي ﷺ جئت بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها. فقال له أبوه: فهلا جئتني ببول أمك فإنه أطهر

(١) ذكره النقي الهندي في كثر العمال (١/١٤٠) (٦٦٨).

منها. فغضب وجاء إلى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله أما أذنت لي في قتل أبي؟ فقال النبي ﷺ: «بل ترفق به وتحسن إليه» (١). وقال ابن جريج: حدثت أن أبا فحافة سب النبي ﷺ فصكّه أبو بكر ابنه صكّة فسقط منها على وجهه، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «أو فعلته، لا تعد إليه» فقال: والذي بعثك بالحق نبياً لو كان السيف مني قريباً لقتلته (٢). وقال ابن مسعود: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وقيل: يوم بدر (٣). وكان الجراح يتصدى لأبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله؛ فأنزل الله حين قتل أباه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية. قال الواقدي: كذلك يقول أهل الشام. ولقد سألت رجلاً من بني الحرث بن فهر فقالوا: توفي أبوه من قبل الإسلام. ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعني أبا بكر دعى ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر، فقال النبي ﷺ: «مَتَّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ» (٤). ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر. ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعلياً وحمزة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر. وقيل: إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، لما كتب إلى أهل مكة بمسيرة النبي ﷺ عام الفتح؛ على ما يأتي بيانه أول سورة «المتحنة» إن شاء الله تعالى. بين أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب.

الثانية: استدلل مالك رحمه الله من هذه الآية على معادة القدرية وترك مجالستهم. قال أشهب عن مالك: لا تجالس القدرية وعادهم في الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

قلت: وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان. وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت في من كان يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها. وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِي نِعْمَةً فَيَأْتِي وَجِدْتَ فِيهَا أَوْحِيَتْ ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ (٥) أي خلق في قلوبهم التصديق؛ يعني من لم يوال من حاد الله. وقيل: ﴿كُتِبَ﴾ أثبت؛ قاله الربيع بن أنس. وقيل: جعل؛ كقوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] أي اجعلنا. وقوله: ﴿فَسَاكُتِبُهَا لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقيل: ﴿كُتِبَ﴾ أي جمع، ومنه الكتيبة؛ أي لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض. وقراءة العامة بفتح الكاف من «كُتِبَ» ونصب النون من «الْإِيمَانَ» بمعنى كُتِبَ الله وهو الأجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ وقرأ أبو العالية وزر بن حبيش والمفضل عن عاصم «كُتِبَ» (٦) على ما لم يسم فاعله «الْإِيمَانَ» برفع النون. وقرأ زر بن حبيش «وَعَشِيرَاتِهِمْ» بآلف وكسر التاء على الجمع (٧)، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم. وقيل: ﴿كُتِبَ فِي

(٢) لياب النقول (ص ٤٣٠) للسيوطي .

(١) أسباب النزول (ص ٣١٠) للواحدي .

(٤) ذكره الألوسي (٢٦/٩) في روح المعاني .

(٣) أسباب النزول (ص ٣١٠) للواحدي .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٦/٦).

(٦، ٧) قراءتان غير متواترتين: البحر المحيط (٢٣٩/٨) لأبي حيان .

قُلُوبِهِمْ ﴿ أَي عَلَى قُلُوبِهِمْ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] وَخَصَّ الْقُلُوبَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ الْإِيمَانِ . ﴿ وَأَيْدِيَهُمْ ﴾ قَوَاهِمُ وَنَصْرَهُمْ ﴿ بَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ؛ قَالَ الْحَسَنُ : وَبَنَصْرٍ مِنْهُ . وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : بِالْقُرْآنِ وَحِجْجِهِ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : بِنُورٍ وَإِيمَانٍ وَبِرَهَانٍ وَهَدًى . وَقِيلَ : بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : أَيْدِيَهُمْ بِجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أَي قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فَرِحُوا بِمَا أَعْطَاهُمْ ﴿ أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْجَرَجَانِيُّ عَنْ بَعْضِ مَشَائِخِهِ ، قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِلَهِي ! مَنْ حِزْبِكَ وَحَوْلَ عَرْشِكَ ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : « يَا دَاوُدَ الْغَاضَةُ أَبْصَارَهُمْ ، النَّقِيَّةُ قُلُوبَهُمْ ، السَّلِيمَةُ أَكْفَهُمْ ؛ أَوْلَيْكَ حِزْبِي وَحَوْلَ عَرْشِي » .

ختمت والحمد لله سورة «المجادلة»

تم بعون الله تعالى الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر وأوله سورة «الحشر»